الدكتور هدارة بين التراث والحداثة

بقلم الأستاذ الدكتور محمد زكي العشماوي*

الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة ظاهرة متميزة في تاريخ الحياة الجامعية والعلمية المعاصرة في مصر والعالم العربي، فهو يحملُ في وعيه ولا وعيه تراثَ الحضارة العربيّة والإسلاميّة، يدرك مسؤوليته تجاه هذا التراث، ويعرف مكانته وقدره، لم يتنكب عن فهم الظروف التي أحاطت بعهود تراثنا القديم في فتراته المتعاقبة، بل هو يشعر دائماً بوطأة ذلك التراث حين يتكلم أو يعمل، كما كان يعي في ذات الوقت ما تضيفه الحضارة الغربية والفكر المعاصر من دفعات حية، تواكب حركة التطور المعاصرة والمصاحبة لنهضتنا الحديثة، في شتى مجالاتها المختلفة.

وكان يصدر في هذين المجالين عن تفكير هادئ ذي بعدين أساسيين: الشمول والعمق، ويدفعه دائماً طموح وثاب، لا يركن به إلى اليأس، بل يدفعه إلى النجاح المتصل، وما كان ذلك ليتحقّق لولا ما يتحلى به من درجة عالية من التوازن المتناغم بين ممارسته العملية للحياة، سواء على المستوى الخاصّ والعامّ أو على المستوى الريادي والقيادي، كما يتجلى ذلك في تحكيمه للعقل، وتخطيطه النابع عن ذهنية سوية ومنظمة، تجمع بين التنظير والتطبيق، بين الخيال (الديناميكي) والواقع الحركي.

---

* أستاذ متفرغ بكلية الآداب، جامعة الإسكندرية.

أضف إلى هذا أنه ينطلق في أقواله وأعماله من إيمانه العميق بـــالله خـــالق السموات والأرض، ثم من ركنين إذا توازنا فلا ثالث لهمـــا في هـــذا الكـــون، الأخلاق والحرية، فلا إنسان بدون أخلاق، ولا حياة بدون حرية، إنهما عنـــده حبتا قمح في سنبلة واحدة، أو هما جنينان في رحم واحد، فإذا انتُهكت الأخلاقُ وانعدمت الحريةُ فلا مكان للإنسان على الأرض، كما أن المبدأ الأخلاقي والرأي المستقل الحر هما عنده الأساس في تقويمه للشخصية والحكم عليها.

أيديولوجية الدكتور هدارة ذات رؤيا عميقة وشاملة، لكنها تنطلـــق مـــن الواقع وتصبّ فيه، إنها بسيطة ومركبة في آن واحد.

وتظهر هذه الإيديولوجية بوضوح في نهجه العلمي، سواء علـــى مســـتوى التدريس في قاعات المحاضرات، أو على مستوى التأليف والبحـــث العلمـــي في دراساته وأبحاثه، إنه النهج العلمي الذي يعتمد على أساليب البحث الحديث، في محاولة تبغي الشمول والدقة في فهم زوايا الموضوع الذي يطرح، وأطر الـــتفكير التي تحتويه وتتضمنه، مع احترام للآراء السابقة دون خضوع لها، أو استسلام لما تفرضه، ومع الحرية في المناقشة وإبداء الرأي المبني على المنطق، والصـــادر عـــن منهجية في النظر، وموضوعية في الأحكام.

خذ، على سبيل المثال، دراسته الرصينة لاتجاهات الشعر في القـــرن الثـــاني الهجري، وهي دراسة تتناول مرحلة من أهم مراحل التطور في تاريخ أدبنا العربي، فلم يظفر أدبنا العربي في تاريخه القديم كلّه بحركة تغيير وتحول جذرية، تهزّ أصوله هزاً عميقاً كما حدث في القرن الثاني، فقد ظفر الشعر في هذا القـــرن بطفـــرة حولته عن مساره، وخلقت منه وجهاً جديداً كلّ الجدة في قسماته، وإيقاعـــه،

وموقفه في الحياة، ورؤيته للوجود، وتناوله لقضايا الإنسان وفكره، وفلسفاته، ومذاهبه على نحو يهز الأصول الثابتة للشعر الجاهلي هزاً عنيفاً.

وقد استطاع الدكتور هدارة بدراسته العلمية لهذا القرن أن يقترب اقتراباً دقيقاً من موضوعات التجارب الشعرية ولغتها، وطرائق تعبيرها، وشخصية شعرائها، ومواقفهم من الحياة، كما كشفت الدراسة عن كثير من جوانب التحول في قيم الشعر ومفاهيمه، وأبرزت -بشكل خاصٍّ- علامات التطور والجدة، التي لم تكن معروفة في شعرنا العربي قبل هذه المرحلة، وقد كشف الكتاب عن حقائق هامة أهمها:

أولاً: أن الشعر في القرن الثاني قد بدأ يخرج من دائرة الاستسلام والرضا والولاء للجماعة والتقاليد والأنماط التقليدية المعروفة، إلى دائرة الرفض والتمرد والسخرية من العادات والتقاليد الثابتة والرضوخ للنمطية، وقد ظهرت علامات هذا كلّه على المستويين الإبداعي والاجتماعي على السواء، ومن هنا أخذت الحياة وظروف المجتمع الجديد يعمقان إحساس العزلة والشعور بالوحدة والقلق والغربة، الأمر الذي دفع بالشاعر إلى ضرورة البحث عن مخرج، فكان السبيل هو طريق الذات، ومحاولة الكشف من خلالها عن التوازن الداخلي، باتخاذ موقف ينبع من تصوره وإرادته الحرة، بعيداً عن أي تأثير.

من هنا كان التحوّل من الحضور الجماعي إلى الحضور الذاتي، أو بمعنى آخر ظهور العمل الإبداعي، يرضي حاجة الذات، ويعبر عن خلاصها وتعزيتها، قبل أن يعبر عن اهتمامات الجماعة وإرضاء قيمها.

ثانياً: لم تكن هذه التجارب الذاتية الجديدة عند كبار شعراء تلك المرحلة، مجرد تجربة تكشف عن مكنون النفس، أو مشاعرها الداخلية فحسب، بل تجاوزت ذلك إلى اتخاذ موقف فكري من الحياة والوجود، أي أن الشعر قد صار رؤية وموقفاً، وصار حلماً وفكراً، في ذات الوقت يتوجه فيه الشاعر إلى الإنسان يتأمل موقفه من الزمن والكون والمصير، ويتجاوز الحدود المكانية والرؤية الجزئية، إلى حدود كلية ومطلقة، كما هو الحال في بعض تجارب أبي نواس، ومن بعده المتنبي وأبي العلاء.

ثالثاً: التحول في شكل الشعر وصياغته فلم يَعُدْ هَمّ الشاعر التعبير، بقدر ما صار من همومه التفكير في كيفية التعبير كما صرح بذلك بشار بن برد، فبدأنا نرى معماراً شعرياً جديداً وتركيباً مختلفاً.

رابعاً: تحررت القصيدة العربية القديمة من بعض التزاماتها المفروضة عليها في الشكل والمضمون، ولم يظهر هذا في إيقاع الشعر، وتطور أوزانه، واقتراب لغته من لغة الحياة فحسب، بل تغير البناء الفني أحياناً، فتحققت التجارب التي تجسد لحظة شعورية واحدة، ورؤية واحدة، تنتشر فيها منذ بدايتها إلى نهايتها.

خامساً: وإلى جانب التحول في الصياغة والشكل والبناء الفني للقصيدة، فقد كان ثمة تحوّل ظاهر في طبيعة التجربة البشرية، أو ما يُسمّى بمضمون الشعر، وما يطرحه من قضايا، ولعل أبرز ملامح التحول في هذه الناحية، موقف الشعر من المجتمع والناس، وظهور نوع من الصراع بين الشاعر والمجتمع، نتيجة لظروف التغير الذي أصاب الحياة، وشكّل وجه المجتمع، نتيجة لما

نشأ من صراعات سياسية وشعرية، واضطرابات في الحياة الاجتماعية، فضلاً عما أصاب الحياة الفكرية والعقلية من تطور.

سادساً: ظهور موضوعات شعرية جديدة لم تكن معهودة، مثل شعر الزهد، والشعر التعليمي، وقد عالجها الباحث بما عرف عنه مِن دقّة وشمول.

فهذا قليل من كثير مما حققه الباحث في كتابه ((اتجاهات الشعر في القرن الثاني)) وهو كتاب يعد من أهم المصادر في تلك المرحلة لا يستغني عنه باحث أو دارس، فسنرى تناولاً عملياً يكشف عن خُطى هذه الظاهرة، ويتعقبها عند النقاد، مستعيناً بنظرته الثاقبة، وثقافته الحديثة التي أعانته على تفسير كثير من مشكلات هذه الظاهرة، التي لقيت اهتماماً كبيراً من نقادنا القدماء، فحققها الباحث تحقيق المتمكن الذي يرد كلّ شيء إلى مكانه الصحيح.

وهكذا كان نهج الدكتور الذي يتسم بالدقة والشمول والمنهجية، والذي يتضح كذلك في دراسته للشعر الجاهلي، وشعر صدر الإسلام.

فإذا انتقلنا من القديم إلى الحديث، واجهتنا دراسته الرائعة للشعراء العرب المُحدَثين، التي ظهرت في عام ١٩٩٤ في جزأين، أتبعها بجزء ثالث تحت عنوان ((كتابات وكُتّاب))، تناول في هذا الجزء أعلام النثر العربي الحديث، وفي هذه الدراسات تستطيع أن تدرك منهج الكاتب في دراسته للشخصية الأدبية، التي يقف فيها عند أبرز الملامح الدالة والناطقة بقسمات الشاعر أو الكاتب، مهتماً بتحديد عناصر الصورة الفنية والإنسانية التي تكشف عن كلّ شخصية، بحيث تظهر أمام القارئ، حتى لكأنه يعاينها ويميزها عن سائر الشخصيات التي يعرفها، وهو منهج يعتمد على ذكاء الكاتب وفطنته، وقدرته على سبر أغوار

الشخصيات، واكتشاف أعماقها، ورسم ملامحها على المستويين النفسي والإبداعي.

ويهمنا بشكل خاصّ أن نقف في المرحلة الحديثة عند كتابه عن النقد الأدبي الحديث، وما جاد به من فصول قيمة تستوقفنا، فيها أربعة فصول درس فيها موضوع الحداثة في عناية ودقة، بذل في ذلك جهداً علمياً مكثفاً، رجع فيه إلى العديد من المراجع والمصادر التي تناولت موضوع الحداثة عند الأوروبيين، في محاولة لتحديد المصطلحات والمفاهيم، ثم الكشف عما يسمّى بالحداثة العربية،والفرق بينها وبين مذهب الحداثة عند الغربيين، المسمى Modernism، أي الفرق بين الحداثة بمعنى مظاهر التجديد والتطور وسماتها في أدبنا العربي، وهو ما يطلق عليه لفظ Modernism، وقد يطلق عليه البعض اسم المعاصرة ومنهم الدكتور هدارة، وبين المذهب الذي ظهر في أوروبا في أوائل هذا القرن وغير الكثير من ملامح التعبير الفني في فنون كثيرة مختلفة.

قرأت هذه الفصول الأربعة باستمتاع، غير أن الذي استوقفني حقيقة، هو قلق الكاتب من خطورة ((الحداثة)) بمعناها الغربي على حياتنا وفكرنا وحضارتنا وتراثنا، ومن هنا جاء هجومه على بعض الحداثيين من شعرائنا الذين يحاولون تقليد هذا الاتجاه، وقد يكون للدكتور هدارة عذره في الهجوم على هؤلاء إلا أنني لمست أن حجم الهجوم أكبر بكثير من حجم الخطورة التي يخشاها الدكتور هدارة على تراثنا وأدبائنا المعاصرين.

وأعتقد أن المبدأين اللذين يرجع إليهما الفزع من الحداثة هما:

أولاً: أن تكون الحداثة نفياً للماضي، وهدماً للتراث، وبدءاً من الآن، وزلزلة عنيفة، وانقلاباً ثقافياً شاملاً يقطع الحاضر عن الماضي، وثورة في مجال النشاط الإبداعي تجعل الإنسان يشك في حضارته وتراثه بأكمله، ويرفض حتى أرسخ معتقداته المتوارثة.

ثانياً: الخوف من إقحام فكر غريب أو بعيد عن قيمنا وتقاليدنا، فينتهي إلى تقليد الغربيين في أفكارهم، وأحوال معيشتهم، دون تبصر من كتابنا أو شعرائنا، فلا يستنيرون ببحث، ولا يتبصرون بحسن نظر، ولا يلتفتون إلى ما هنالك من تنافر في الطباع، وتباين في الأذواق، واختلاف في العادات، فتكون النتيجة إصابة المجتمع بالخلل، فسينهدم الأساس، وينقض البُنْيان.

لعل هذين هما المبدآن اللذان يثيران التخوف والقلق من تيار الحداثة بمفهومها المذهبي الأوروبي.

والذي أراه -وقد أَختلفُ فيه مع الدكتور هدارة- أن الخوف من هذين المبدأين على مصيرنا الفني، وتراثنا الأدبي، وموقعنا الحضاري والاجتماعي، يبدو أكبر بكثير من حجم الواقع وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: قد يكون الخوف على المستوى النظري أمراً وارداً، وشيئاً طبيعياً، لكنه على مستوى الواقع والمستوى التطبيقي لا يدعو إلى الخوف، فليس في واقعنا الأدبي المعاصر حداثة المودرنزم بالدرجة التي تهدم التراث، أو تمحو حضارة بأكملها، أو تحدث انقلاباً شاملاً.

فحداثة أوروبا كانت تهدف إلى تقويض صرح الواقعية أو الرومانسية، وتترع إلى التجريدية، مثل التأثرية والتعبيرية والمستقبلية والرمزية والسيريالية،

وحتى هذه التيارات ليست جميعها صنفاً واحداً، بل إن بعضها قد يناقض بعضها الآخر، فالمودرنزم ليست أسلوباً بقدر ما هي بحث عن أسلوب بمعنى فردي موغل في الفردية.

إنه فن ينهض على أنقاض الحقائق العامة المشتركة، وعلى الأفكار التقليدية، واندثار الآراء المتوارثة، إنه فن تحول المجتمع الأوروبي إلى مجتمع اليوم.

تلك هي حداثة المودرنزم فأين نحن العرب من هذه الأشياء؟

متى كانت الواقعية والعقلانية، والتصنيع الشامل والتكنولوجيا الحديثة هي السمات الغالبة على مجتمعنا؟!

إن الواقعية لم تبدأ عندنا إلا في الأربعينيات والخمسينيات، أي في الوقت الذي بدأت فيه الدعوة عندنا إلى الحداثة في الشعر، ولم يمض ربع قرن حتى انتهت دعوة الحداثة نفسها.

كل الذي حدث عندنا أن موقفنا المعاصر يتميز في بعض صفاته بأسلوب الأدب الحديث: أعني أزمة الإنسان المعاصر.. مأساته، انهيار القيم التقليدية، ضياع الفرد في جهاز الدولة، فقدانه لفرديته لا لغلبة الآلة والتكنولوجيا الحديثة على حياته، ولكن لاعتبارات سياسية واجتماعية واقتصادية قهرية.

ومع ذلك فإن الأديب العربي لم يفقد ثقته بنفسه وثقافته وأصالته، والقليلون جداً هم الذين ركضوا لاهثين وراء آخر البدع أو (الموضات) ليقلدوها – سواء أكان ذلك عن معرفة أم عن جهل.

إن الحداثة العربية الحقة هي أن تكون صادقاً مع نفسك، وأنت تصاحب حركة التطور الحضاري، وتعبر عنه أصدق تعبير، والحديث الحق هو الذي يعبر عن الحساسية الحديثة.

ثانياً: إن حداثة أدونيس ورفاقه -على المستويين النظري والتطبيقي- أي من خلال التجارب النقدية والإبداعية التي تطرحها، ليست لها القوة الكاسحة أو الجارفة والقادرة على التغيير المخيف، الذي يخشاه الدكتور هدارة، فلم يستطع أدونيس ورفاقه أن يغيروا ملامح وتقاليد وحضارة تراثنا، وعاش على مدى قرون وما يزال يتنفس فينا وفي أعمال أدونيس نفسه.

ثم إن إطلاق صفة الفن الحديث بالمعنى الذي عرفناه على هذه التجارب أمر يبدو بعيداً.

والغريب الذي يستحق التسجيل أن إطلاق لفظة الحداثة عند الأوروبيين، جاء مصاحباً أو لاحقاً لهذه الظاهرة، أما عندنا فقد جاء سابقاً حتى أصبح لكلمة الحداثة عندنا دلالة (تقويمية) بدلاً من أن تكون مجرد نعت أو مصطلح وصفي.

ثالثاً: إن الحداثة - أياً كان نوعها- عندنا نحن العرب، أو عند الأوروبيين، أو في أي زمان ومكان، تعني التغيير والتجديد -سواء أكان إبداعاً، أم دراسة نقدية- إنما يهدف إلى تغيير المجتمع بقيمه الحضارية والروحية، وبمقولاته الفكرية بدرجات متفاوتة، فهناك على سبيل المثال حداثة مناسبة كالتي رأيناها في كتاب الدكتور هدارة ((اتجاهات الشعر في القرن الثاني)) وهناك حداثة معاصرة.

فطه حسين مثلاً يرى أن مسألة تغيير المناهج القديمة في دراسة الأدب، ليست مسألة تتعلق بالأدب وحدَه، وإنما هي مسألة ترتبط بمصير الثقافة العربية الحديثة، وبمصير المجتمع العربي بأسره، وهكذا يوحد طه حسين بين ذاته وقضيته من جهة، وبين مجتمعه وعصره من ناحية أخرى.

هذه بعض ما أثارته الفصول الأربعة التي كتبها الدكتور هدارة عن الحداثة، وهي فصول مثيرة وباعثة على المناقشة والحوار، سبق أن ناقشناها معاً على موجات البرنامج الثاني عقب صدور كتابه.

وبعد، فهذه خواطر قليلة من كثيرة تثيرها أعمال الدكتور هدارة العلمية الفنية بقضاياها المتنوعة والرحبة، وجميعها يتّسم بالشمول والعمق والدقة.

هذا، فضلاً عما لشخصية الدكتور هدارة من غنى وخصوبة وتأثير واسع، فينتشر في شتى أنحاء العالم العربي، مما يؤكد ما للصديق العزيز من فضل، فهو بحق ثروة شاركت في صنع الحياة الأدبية والفكرية في عصرنا الحديث، في مصر والعالم العربي.

obeikandl.com